اللواء ٤ كانون الثاني ٢٠١٨

التربيتان المدنية والأخلاقية أولاً!

قضى القدر أن يتغلب العنصر الغربي عموماً على شرقنا منذ أمد بعيد، وحتمت علينا الأحوال وخيانة الدهر ان نرانا متقهقرين من عدّة وجوه استيقظنا متاخرين من رقادنا ولو بدرجات ورأينا الأجانب سبقونا وتفوقوا علينا في العلوم والصنائع ولا سيما في العلوم التقنية.

فبُهرنا من تقدّمهم واخذنا ننظر إليهم نظرة الاعجاب في كل أطوارهم وعدنا لا نعرف ان نميز بين السّم والدسم وبين ما هو تمدّن أو تقهقر، فاخذنا نتحداهم تحدّياً أعمى غير جاعلين قبلة عزائمنا التشبه بجلّة القوم وبالطبقة الراقية، بل متمثلين بعيوبهم أكثر منّا بصفاتهم الحسنة، وقد فاتنا أن التمدن لا يقوم باختراع الآلات أو مواكبة تقنياتها واستعمالها وتسهيل طرق المعاش، بل ينبغي أن يكون مرتبطاً بالمبادئ القويمة والاخلاق الحسنة والسعي لتخفيف ويلات الإنسانية. هذا التقليد الأعمى انتشر فينا إلى أن سرت منه أمراض كثيرة في حياتنا الفردية والعيلية والاجتماعية.

من الوجهة الاجتماعية - السياسية على الخصوص، ليست المشكلة مشكلة أشخاص فاسدين أو أحزاب طائفية في أكثر الأحيان، بل أزمة بنيوية تتناول منطق إدارة الشأن العام الذي يبقى على حاله على الرغم من تغيّر بعض الوجوه وتعاقب الأجيال.

فماذا يعني الوطن اللبناني؟ وما الشرعية؟ هل نحن تجاوُر شرعيات تقوى إحداها على الأخرى ثم تتبدّل موازين القوى؟ هل نحن مجتمع أو تجاوُر جماعات؟

هل نحن أمة واحدة أم مجموعة طوائف ومذاهب وملل؟

هل ثمة اعتبارات عملانية وأخلاقية ووظيفية في الحياة العامة أم أن ثمة سياسات أبوية المنحى! في السياسات الرشيدة أحياناً عوامل غير منتظرة أو بطولية ينبغي أن تبرز هنا وهناك، ثمة خيانة لزمان مُدّة أعصر طويلة قاسينا فيها من الجدد والاضطهاد ما من شأنه ان يطفئ أنوار غيرنا من الأمم ويخمد نيران قلوبها، وأفراد منّا لا يلبثون في أي بلد يطاونه ان يصبحوا مبرّزين فيها بعد زمن قليل كما يجري لهم في باريس ونيويورك والبرازيل وسائر انحاء المعمورة، تلك الصفات التي وهبتنا إياها الطبيعة في مجاراة غيرنا حتى نتحدّاه في وقت قريب قد أصبحت لنا في هذه الأيام الخطر الكبير الذي يكاد يدكّ صرح مجتمعنا ويذهب بأخلاقنا ويجعلنا نمشي في مؤخر الأمم المتمدنة إذ اننا نستعمل هذه المميزات التي حبتنا بها الطبيعة لتقليد لا تمييز فيه واستلاب وطني وقومي غريب عجيب، فناخذ غالباً المضرّ من العوائد الأجنبية وننبذ المفيد منها واللازم، بينما ناخذ في نسيان عوائدنا الشريفة التي تحلّى بها شرقنا مُدّة قرون طويلة، وقد فتك فينا هذا الداء وانتشر حتى أصبح من الأوبئة الخطرة التي لا يسعنا السكوت عنها.

المشكلة عندنا هي مشكلة انتماء وطن حقيقي ومشكلة سمو اخلاقي.

وقد وعدنا غير مرّة مسؤولون في الدولة تبني كتب لنا حول التربيتين المدنية والاخلاقية ولكن وعودهم ذهبت أدراج الرياح!!!

انني لواثق بأن تتحوّل هذه الأوضاع الشاذة قريباً شطرَ ما ندعو اليه وأن بعض مسؤولينا الشرفاء العقلاء لن يخيّبوا آمالنا من هذا القبيل!

د. جهاد نعمان
أستاذ في المعهد العالي للدكتوراه/ الجامعة اللبنانية